الدكتور عبد العزيز المقالح

من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي

دراسات ومتابعات نقدية

دار الكلمة
صنعاء..

اختناق الهديل
قراءة أولى فى شعر الفضول

١

كان الشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان ، الشهير بالفضول ، قد اتجه قبل وفاته بسنوات إلى كتابة القصيدة العاطفية المغناة ، وكان بعض أصدقائه والأدباء منهم بخاصة ، قد رأوا فى هذا الاتجاه بداية مرحلة إبداع جديدة يخوضها الشاعر الفنان المرهف الحس بعد أن اقتنع بالتخلى عن الصحافة والسياسة مفسرا ذلك الإقتناع ـ بعد الظروف النفسية التى مر بها الوطن ـ بأن لكل عصر دولة ورجال ، وكانت المحاولة ناجحة ومتميزة وضعت الشاعر الساخر ، الكاتب السياسى أمام انعطاف حاسم فى حياته الأدبية والفكرية وجعلته يبدع عددا كبيرا من الأغانى والأناشيد المستلهمة من وجدان الشعب ومن روح الوطن المنتصرة ، ولأن المحاولة كانت ناجحه ومتميزة فقد أسدلت الستار أو كادت عن جهاد الفضول ، وعن شعره النضالى ودوره المبكر فى إرساء تقاليد صحفية تضع البلاد وجها لوجه مع العالم والعصر الجديد

لقد نسى الكثيرون عبد الله عبد الوهاب الشاعر ، وعبد الله عبد الوهاب الكاتب ، وعبد الله عبد الوهاب الصحفى ، ولم يعودوا يتذكرون منه سوى هذا الهديل الجميل الذى يتردد عذبا قويا من أجمل حنجرة يمنية ، وعبد الله عبد الوهاب لم يتوقف عن كتابة القصيدة غير الغنائية وإن كان قد توقف عن الكتابة النثرية إلا أنه لم يكن ينشر شيئا من تلك القصائد ، مكتفيا بهذه الأغانى لعله بكلمات الحب الفياضة يستطيع أن يكبل الموت ويحاصر التخلف والكراهية ، لكنه

كان قد نجح فى محاصرة التخلف والكراهية فإنه لم ينجح فى محاصرة الموت ولا حتى فى تأخير موعده ـ وهيهات للإنسان أن يستطيع ، لقد نجح الهديل الجميل فى النفاذ إلى القلوب ، وفى تحرير الأغنية العاطفية من طابع الحزن والأسى ، لكنه فشل فى مدّ حياة الشاعر ، وأثبت الموقف الفاشل للهديل الجميل أن الموت حقيقة مؤكدة لا مفر منها ، ولا جدوى من نشدان البقاء بعيدا عنها . وهل استطاع الفن والشعر والعلم والذكاء والمعرفة أن تضمن للإنسان المبدع سوى هذا القدر الضئيل من الخلود الإنسانى ، وهذا الخلود الإنسانى ؟ إذا تحقق رمز وفاء عميق من الحياة للراحلين من البشر ، ممن يحاولون ألا يتركوا العالم إلا وقد أصبح بعد وجودهم فيه أكثر نضجا وأكثر امتلاء بالفن والمحبة والجمال ، فالفن بمختلف أشكاله القولية واللونية والصوتية هو المقياس الوحيد الحميمى والأبدى فى هذا العالم الذى يبدو أكثر ما يكون جمالا فى الصورة والنغم ، وفى الكلمة والإيقاع .

خلفية تاريخية :

لقد مر وقت طويل منذ بدأت الحركة الوطنية اليمنية فى التشكل ، وسوف يمر وقت أطول حتى يتمكن الوعى الوطنى الخلاق من استيعاب أبعادها ومن تفسير آثارها وما تركته على الصعيدين السياسى والثقافى من ردود أفعال إيجابية وسلبية ، ومن خلال منظور تحليلى غير منحاز ولا مفتعل ، وربما تكون حياة بعض الوطنيين وحياة بعض الأدباء أمثال عبد الله عبد الوهاب نعمان اختزالا طبيعيا لمسار الحركة الوطنية منذ ثلاثينات هذا القرن وحتى قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر على الأقل ، فقد واكب تاريخ حياته تاريخ البدايات الأولى للحركة الوطنية ، كما واكب بداية اندفاعها ثم سقوط محاولتها الجريئة الأولى فى فبراير ١٩٤٨ ، ثم النكوص القاسى فالإحباط فالتجديد ، مع ما رافق ذلك التجدد من تناقض وتوتر انفعالى بين عناصر التغير ، وهكذا كانت طفولته ثم شبابه تجسيدا حقيقيا لقسوة الظروف ولمعاناة الطموح الكامن فى وجدان الشعب وفى تفكير الطاقات الطلائعية من أبنائه الذين قاوموا حالة الموات وبشروا بالتطور فى اتجاه الحياة الجديدة ، وكانت

أعمارهم القصيرة وقودا جميلا لهذا التغيير الحافل بكل الأفكار ، وبكل أشكال التطور المختلفة، الناقص منها والتام، الإيجابي والسلبي، النافع والضار ، المعقول واللامعقول ! ! .

ومن يتابع المحاولات القليلة الجادة لدراسة الحركة الوطنية اليمنية يدرك أن هناك شبه إجماع على أن جذور هذه الحركة تمتد إلى بداية تسلم الإمام يحيى حميد الدين لما سمى بالاستقلال المفرغ من كل محتوى ، وهو « الاستقلال » الذى ما لبث أن تحول إلى مكسب شخصى لذلك الحكم الفرد ، وبمقتضى ذلك « الاستقلال » المزعوم أراد ذلك الحاكم الفرد أن يجعل من نفسه أسطورة للتأله واستعباد المواطنين وتحويلهم تدريجيا إلى رعايا من درجات مختلفة ومتفاوته فى الولاء وفى الخضوع وفى القرب والبعد من ثقة الإمام المتقلبة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من النكوص المريض ، بل وصل إلى درجة أعتبار الشعب واحدة من الغنائم التى آلت إلى الإمام بعد رحيل الأتراك المحتلين ، وصار الشعب من يومئذ إرثا للإمام ولأبنائه ولاحفادهم من بعدهم ، الأمر الذى أثار حفيظة النابهين والمستنيرين من أبناء الشعب ، وجعلهم يعلنون عن هذا الشعور فى مختلف أنحاء اليمن من صعدة إلى حاشد إلى تهامة من همدان إلى البيضاء وتعز ، ولأن المستنيرين قلة ، ولأن التمرد لم يتزامن - لأسباب موضوعية كثيرة منها غياب المواصلات وانقطاع التواصل- بين أجزاء الوطن فقد تمكن الإمام وأعوانه من ضرب بداية التململ ، واقتادت قوات الإمام أبرز المتمردين لتضعهم فى سجون صنعاء وحجة ، وبعد أن هلك معظم قادة التمرد فى السجون ولم يبق منهم سوى أفراد فرض الإمام على بعض هؤلاء الأفراد البقاء الإجبارى فى العاصمة حتى لا يعودوا إلى مواصلة تمردهم وكان الشهيد عبد الوهاب نعمان واحداً من الذين وقع عليهم الأسر ثم واحدا من الذين وقع عليهم قرار الإقامة الاجبارية فى العاصمة ليكون تحت الرقابة التامة وعلى حد تعبير الإمام يحى نفسه ليكون على مقربة من سمع الإمام وبصره .

وكان الفضول أحد الأبناء الأكثر نباهة لذلك المجاهد الشهيد ، وفى ظل

الظروف القاسية . التى عانى منها الوالد تعرض الطفل للخوف صغيرا ، وعانى من شعور التمزق والضياع ، وتحملت الطفولة الباكرة من صنوف الاضطهاد وسلبيات الواقع المر ما غذى فى نفسه الإحساس بالثورة فى وقت مبكر ، وما جعله يصبح جنديا من جنودها قبل أن يصل إلى السن القانونى للتجنيد وإذا كان الكتاب والدراسون سوف يواجهون كثيرا من المشاكل عند متابعة شباب عدد كبير من رجال الحركة الوطنية فإن الأمر بالنسبة للشاعر عبد الله عبد الوهاب يختلف ، فقد أعطاه ارتباطه المبكر بالحركة موقفاً متميزا يجعل أى دارس يعلم الكثير من مرحلة شبابه ، ويتعرف ـ وهذا هو الأهم ـ على الكثير من ملامح تطوره الثقافى والنفسى ، وستكون مرحلة إقامته الطويلة فى عدن ـ بعد مرحلتى إقامته فى صنعاء وزبيد ـ هى أخصب مراحل حياته وأحفلها بالنشاط السياسى والثقافى ، وقد بدأت هذه المرحلة مع أواخر النصف الأول من الأربعينات ، وهى الفترة التى انتقل فيها عدد من المناضلين اليمنيين من تعز إلى عدن فى طريقهم إلى مصر لتأسيس أو تنظيم سياسى علنى وإقامة جبهة من الأحرار والمهاجرين لمقاومة نظام الإمام يحيى ، أغرب أنظمة التخلف والخرافة فى القرن العشرين .

كانت الحرب العالمية الثانية قد اقتربت من نهايتها عندما تم انتقال أفراد من الطليعة اليمنية من شمال الوطن إلى عدن اليمنية ، ولم تكن عدن هى الهدف أو المكان المختار لمجابهة نظام صنعاء وانما كانت مجرد ميناء للاقلاع فى طريقه إلى مصر أو إلى أية دولة عربية أخرى فى حالة رفض مصر اقامة تنظيم يفضح الألاعيب المتوكلية كما تدل على ذلك معظم أدبيات الحركة الوطنية التى تم العثور عليها فى منزل الشهيد محمد محمود الزبيرى وكانت فى حوزة أسرته ، لكن ظروف الحرب ـ كما يبدو ـ ثم ظروف انشاء الجامعة العربية ، المؤسسة الوحدوية الرسمية التى ولدت ميتة بسبب رسميتها ولكونها ـ كما صارت بعد ذلك ـ المنبر الأكثر شراسة فى الدفاع عن الأنظمة الحاكمة وتبنى آراءها فى سحق أصوات المعارضة وخنق الحرية النسبية التى كان يتمتع بها بعض الأفراد الهاربين من أنظمة الحكم الباطشة فى بلادهم ، أقول إن هذه الظروف قد حالت بين أفراد من طليعة الأحرار اليمنيين

وبين سفرهم إلى مصر فكان لابد أن يظلوا فى عدن وأن يبدأوا نشاطهم الإعلامى ـ رغما عنهم ـ من تلك المدينة الخاضعة للاحتلال ، ومهما يكن لون الادعاءات التى أطلقتها أبواق الإمام يحيى يومئذ والتى ما تزال تتردد على ألسنة أقلام بعض « عشاق » ذلك الإمام الذى أعاد اليمن ألف عام إلى الوراء ، والذى خرج عليه حتى أقرب الناس إليه من أولاده ، والذى ما تزال تطاردنا مخلفات عهده وسلبيات نظامه الرهيب ، وأقول مهما يكن لون تلك الادعاءات فأن جوهر النظام الذى كان يتحكم فى صنعاء وعدن هو واحد ، والفارق الوحيد أن الاحتلال الذى كان يسيطر على اليمن بأكملها اقتصاديا ويهيمن عليها بأكملها ماديا ومعنويا قد ترك للإمام الحق فى ظلم رعاياه والتنكيل بهم إلى الحد الذى يرضى غروره ويجعله يعتقد أنه الحاكم بأمره ، وأنه الحاكم العربى المستقل الوحيد الوطنى العربى ، وربما أن الاستعمار البريطانى قد أراد أن يبقى هذا الجزء بعيدا عن نفوذه المباشر وعن وجوده المباشر لكى يقنع الأذكياء ـ قبل الأغبياء ـ أن هذه هى صورة الاستقلال ، وأن يثبت بالمقارنة أن المواطن اليمنى فى عدن أحسن حالا من شقيقه المواطن فى صنعاء حيث يتمتع الأول بقدر من حرية الرأى وبقدر من التعليم الحديث والمحكوم بخطة استعمارية ذكية .

فى هذا المناخ ولد فصيل من فصائل حركة المعارضة اليمنية، وكان جهد هذا الفصيل فى الأساس ثقافى إعلامى يحاول فض الغشاوة الجامدة من على عيون اليمنيين وتحريك الخلايا المتجمدة فى عقولهم ، وقد نجح هذا الفصيل إلى حد ما فى تحقيق هذا الهدف وفى رعاية هذا الفصيل نشأ عبد الله عبد الوهاب نعمان الشاعر والكاتب الصحفى ، والذى لم يظهر دوره واضحا وجليا الا بعد فشل حركة فبراير ١٩٤٨ فقد تسلم الراية وحيدا وظل يقاوم الليل الذى جد على اليمن بعيد رحيل ليل الإمام يحى ، حتى ظهرت أجيال جديدة تتحمل عبء القضية من منظورات أخرى وبأساليب ومقومات تختلف عن أساليب ومقومات الآباء .

كانت الهزيمة الناتجة عن فشل الحركة الانقلابية الأولى تنطوى على مخاطر رهيبة ليس أهمها استئصال جذور الأحرار بالقتل والسجن والتشريد ، وانما اجهاض

الإحساس بضرورة الثورة على الطغيان والشعور باليأس من محاولة التغيير، ومن هنا من هذا الموقف الخطر يتكشف أهمية الدور الذى قام به عبد الله عبد الوهاب من خلال صحيفته المتواضعة « الفضول » والتى سيتخلى من الآن عن إسمه العائلى المشهور ليحمل إسمها وتصبح تعبيرا عنه كما يصبح هو تعبيرا عنها ، أو بعبارة أخرى يختلط الصحفى بالصحيفة فيصبحان شيئا واحدا يشكل حضور أحدهما الحضور الغائب للآخر ، وهنا لابد أن نتوقف لكى نتعرف على ملامح هذه الصحيفة التى أصبحت بعد ظهورها إنساناً كاتبا وشاعرا ساخرا مندداً بكل ألوان الجور وأشكال التخلف .

كان سقوط حركة ٤٨ بالنسبة للغالبية الساحقة من أبناء اليمن **مأساة عامة لكنها بالنسبة للفضول ولعدد من زملائه كانت مأساة عامة وفى ذات الوقت مأساة خاصة ، فقد قتل الطغيان بعد أسابيع من سقوط الحركة والده المناضل الجسور ، كان شيخا طاعنا فى السن ، اقتاده الزبانية من السجن بعد أن جردوه من قيوده وجروه بحبل وساروا به إلى ميدان الإعدام حيث وضعوا عنقه النحيل على خشبة جافة ، وجاء السياف الأسود ليضع سيفه الحاد على العنق الكريم ويفصله بضربة واحدة ظل يتحدث كثيرا عن براعتها ودقة إحكامها .. كان الابن ما يزال فى عدن ، وحين وصلت إليه الأنباء الفاجعة حزن كثيرا وتألم كثيرا ، لكن حزنه لم يتفجر يأسا وخوفا وانما تفجر غضبا وسخرية ، وعلى ضوء الدم المراق والأحلام الغاربة بدأ رحلته الجديدة مع « الفضول » فى فضح نظام القتل والتخلف ، ولأنه كان من أعرف الناس بالمستوى الثقافى المتدنى للناس فى بلاده فقد رأى أن يتبسط فى حديثه إلى الشعب ، وأن يكون قريبا إلى الوجدان العام سواء فى شعره أو نثره ، فى جده أو هزله ، وقد رأى كذلك أن يجعل الشعب يشعر أنه فى محنة خانقة ، فى بلية منقطعة النظير، وذلك من خلال محاولته الدؤوبة على إضحاكه من أوضاعه اللامعقولة « وشر البلية ما يضحك » كما يقول القدامى ، وكما قالت ذلك** « الفضول » فى كل أعدادها . ولعل التناول الجاد للأوضاع القائمة فى البلاد بعد المذابح الرهيبة ، والقمع المرعب كان كفيلا بخلق موجة من اليأس ، لذلك

فقد كان الأسلوب الساخر العميق، والتناول الفكاهى المرح، خير وسيلة لتجسيد الغضب وامتصاص نوبة الخوف من أعماق النفوس. وقد نجح ذلك الشاب المفجوع بعد فترة من الذهول إلى هذه الطريقة التى حررته من الكابوس العنيف.. الكابوس الذى لم يكن يمنيا وحسب وإنما كان كذلك عربيا فقد كانت النكبة المحلية فى مارس ١٩٤٨ بسقوط التجربة الأولى للتغير الدستورى، وفى مايو ١٩٤٨ كانت النكبة العربية بسقوط فلسطين، وقد استطاع «**الفضول**» أن يزاوج بين المأساتين، وأن يفضح الموقف العربى المتفرج من اليمن ومن فلسطين على السواء، فقد شاركت الدول العربية آنذاك كما شاركت المنظمة المدعوة بالجامعة العربية بنصيب تاريخى فى ذبح أحلام الإنسان العربى فى اليمن وفلسطين.

نماذج طريفة من كتابات الفضول :

فى العدد الثانى من «الفضول» كتب عبد الله عبد الوهاب افتتاحية العدد، وقد كانت تجىء دائما تحت عنوان «**وأما بعد**» كتب يقول: «وأما بعد فهذى هى الفضول الذى انتظرها القراء غير صابرين فاضطررنا إلى إخراجها لهم بهذا الثوب الكئيب الذى تمشى به إليهم على استحياء وهم لم ينتظروا ولم يلجوا لأن الصحافة جديدة عليهم، أو غريبة عنهم، أو طارئة على عقولهم، فقد عرفوا صحفا عدنية وأقلاما عدنية ليست «الفضول» ولا قلم «الفضول» إلى جانبها بشىء يذكر ولا حدث يؤثر، وإنما الجديد الذى ألحوّا فى طلبه وانتظروه هو «الفضول» فقد شاقهم ما فى هذه التسمية من معان كثيرة، ثم هى توحى بما ستحمله لهم الصحيفة فى مادتها من طابع المرح، وروح النكتة وألوان التندر والتسلية والإمتاع، ألا وان الحياة فى هذا الجنوب جافة ناشفة ليس فيها أثر من عصارة ولا بلل.. وحقائق الحياة فيه مريرة خانقة لا يستسيغها المرء إلا أن تكون مغشاة ـ كالعلاج المر ـ فى لفافة من السكر أو قطعة من الحلوى.. وكذلك أردنا أن يجدها فى الفضول قراء الفضول!. ولقد عرف أبناء الجنوب صحيفتهم ولسانهم «**الفتاة**» وما عرفوا فيها غير الجد والصرامة وتعقيد الحواجب والبرطام، وتلك

طبيعة الحياة فى هذه البلاد، فلا بُدّ لكل صحيفة مجاهدة أن تنتزع مادتها من لون تلك الطبيعة ومن صميم تلك الحياة، فما يرى القارئ فيها إلا ما يراه على وجه الجندى عبوس «لايجود على أحد ببسمة إلا أن تكون قد فتحت لها شفتيه بالكلاليب .. ثم عرفوا من بعد « **الفتاة** » أختها « **الأفكار** » بطابعها الجدى العاقل المتزن الرصين فما يشعر قارئها إلا أنه قد تقمص روح شيخ جليل وقور، يغطى بلحيته البطن، ويبقى بعمامته الشمس، ويلامس بسبحته التراب

ثم جاءت على أثرها « **صوت اليمن** » .. فما كانت العين تقع منها إلاَّ على الشوك والجمر والجراح وسوء الأخبار.. حتى لكأنها تحرر بأقلام نفر من رجال المطافىء يعددون للناس فيها حوادث الهدم والحريق .. وأخيرا ظهرت الصحيفة الدينية .. واسمها « **الذكرى** » ومصدرة وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين .. ومعناه الانتقال بنا إلى الآخرة رحمنا الله. وقد كان فى عزمنا أن نخرج الفضول جريدة دينية .. وأن نطلق عليها اسم (**المقبرة**) . مبالغة فى التذكير بالآخرة وملحقاتها من العذاب والنكال والجهنم والغلاظ الشداد .. ! حتى يشعر كل قارئ بأن النعش معلق فى عنفقته وأن خيشومه يمتلىء برائحة تراب القبر. ولكنا لم نوفق إلى ذلك .. فجزى الله أصحابنا خيرا .. ومرحبا بالدين ومرحبا (**بالذكرى**) إذا الناس قد أصبحوا من الغفلة والأشتغال بالدنيا بحيث يحتاجون إلى جرائد دينية كثيرة .. وبحيث يلزم على كل جريدة منها أن تبعث لكل قارئ مع نسخته مغرفا للوضوء .. وبعد فاننا لم نرد للزميلات بما سبق كله .. غير الدعابة البريئة والتحية الضاحكة فلا يأخذ أحد علينا أسلوبا فى التهجم والهزوء أو الازدراء .. والسلام على الزملاء والزميلات الأحياء ــ منهم ومنهن ــ والأموات)[1] .

بهذه الكلمات الضاحكة من بين الدموع .. وبمثل هذا الأسلوب ــ المليء بالتعابير الدارجة حدد (**الفضول**) نهجه الصحفى وبلور ملامح نضاله بعيدا عن التزمت وبعيدا عن جفاف الجد، وكان بذلك يعبر عن نهج جديد فى الصحافة

---

(١) الفضول : العدد رقم ٢ ، ٢١ ديسمبر ١٩٤٨ .

اليمنية ـ وربما العربية ـ طابعه الظاهر المرح وروح النكتة والتسلية والإمتاع وجوهره وضع حقائق الحياة المريرة فى هذا الجزء من جنوب الجزيرة ، وهى حقائق خانقة لابد لكى توضع أمام القارئ أن تغلف بغطاء سكرى لذيذ كما يصنع الطبيب الحاذق مع العلاج المر ، وإذا استطاع المريض الأمى المظلوم ابتلاع قدر من هذه الحقائق فإن ذلك سيكون الخطوة الأولى نحو الشفاء من الظلم والخلاص من الفساد ، وقد تنبه إلى أهمية هذا النهج زميل صحفى آخر وشاعر كبير هو المرحوم على محمد لقمان الذى كَتَب فى العدد الثانى من الفضول كلمة قصيرة رحب بظهورها ويشيد بالأسلوب المرح الضاحك الذى اختار أن تظهر به وهو يقول فى تحيته : (**وأنك لموفق حين تتخذ الفضول سبيلا** للفكاهة والنكتة . فنحن شعب يحتاج للفكاهة لأننا عابسون **ومن حقنا أن نضحك كما تضحك الشعوب الأخرى وليست الفكاهة كلها لهوا وعبثا وضحكا فأن نكتة واحدة تقوم مقام مقال طويل يتعب القارىء وقد لا يؤدى ما تؤديه النكتة الخفيفة المرتجلة** .

ومن زوايا (**الفضول**) وأبوابها الثابتة زاوية « **أول وآخر خبر** » فى الصفحة الأولى إلى جوار الافتتاحية ، وباب (**منبر الفضول**) فى الصفحة الثالثة ، وهذا نموذج لأول وآخر خبر من العدد الثانى وهو يحكى عن خرق اليهود للهدنة التى أقرها مجلس الأمن وهى بداية عادتهم الذميمة من ذلك الحين ، وقد وضع الفضول نقطة حرف « **الخاء** » على الراء فصارت (**خزق**) وتؤدى فى العامية اليمنية نفس المعنى ثم غير حرف النون فى الهدنة إلى (**ميم**) فصارت « **الهدمة** » وهى فى العامية اليمنية مارث وتهدم من الثياب والفرش وهذا هو الخبر الظريف (**خزق**) اليهود « **الهدمة** » اللى عملها لهم حبيبهم مجلس الأمن .. خزق الله قلبه .. !) أما النموذج الذى اخترناه لكى يمثل (**منبر الفضول**) وهو من نفس العدد وهو يأتى على شكل رسالة إلى أحد عمال الإمام أو بالاصح إلى أحد ولاته ممن كانوا يظلمون الرعايا ويبطشون بالأبرياء من الناس دونما خوف أو رحمة ، يقول المنبر :
« **حضرة الفاضل** » (**م ح**) عامل قضاء « **م** » حرسك الله وحرس الناس منك .
سيدى ! هذه كلمة (**فضول**) أردت أن أهمس لك بها . وأنها لكلمة حق مهما

تكن شائكة لابد وأن أضعها فى أذنيك العريضتين ! وأنا حين أقول هذه الكلمة لا أعنى بها إلا الحرص على سمعتك « **أولا** » وعلى سمعة حكومتنا « **ثانيا** » .. وقد أجهلت اسمك كما ترى ، خوف أن تلوكك الألسن وتزدريك العيون . وأما بعد فإن أمير المؤمنين ابقاه الله ، قد أكرمك هذا الاكرام واسترعاك هذه الرغبة ، ووثق بك هذه الثقة فمالى أراك تعبث بكل ذلك غير حاسب للكرامة حسابا . ان بين يدى عدة قصص عن منكوبيك وضحاياك . وليست قصصا من النوع الملفق الذى يتسرب إليه الشك ، ولا من اللون الهين الذى تحتمل له الأعذار . فكلها مدعمة بالحوادث والتواريخ .. (**والغزوات**) والمبالغ الكبيرة الأرقام . وقد قرأتها جميعا فخرجت منها بنتيجة واحدة ، وهى أن الشرف والعفة قد نزعتهما من نفسك يا صاحبى وطرحتهما بين مهمل متاعك فى الجراب . أيها العمال والمشائخ والحكام ! ان كرامة شعب لدى . أمير المؤمنين ايده الله أثمن من بطونكم وأن حقوق الأمة أعز فى نظر جلالته منكم فأكرموا أمير المؤمنين فى رعيته كما أكرمكم واعزوا شعبه كما أعزكم ، وارعوا حقوق طاعته فى صيانة ما أسترعاكم إياه وائتمنكم عليه من أموال وأعراض وحقوق وكرامات قبل أن يمسكم من عقابه ما تصبحون به فى عداد الشحاذين والمتسولين والصعاليك ونعوذ بالله من تسول بعد تمول ومن تصعلك بعد تملك) .. نفسه العدد ٢ ، ص ٣ .

هذه نماذج لما كانت (**الفضول**) **الصحيفة** تنشر على صفحاتها ، ولما كان « **الفضول** » الصحفى يكتبه بقلمه الساخر الشجاع ، وقد بسطتها هنا بين يدى القارئ لا لكى يتعرف على ألوان من الكتابة الطافحة بالمضحك المبكى عن شئون البلاد فى أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات وانما لكى يراجع الجيل الحاضر صورا من ماضينا التعيس ، ولابد أن تظل هذه الكتابات بالرغم من تقادم الزمان وثيقة هامة على الأجيال المتعاقبة أن تعيد قراءتها لا لكى تحلل معانى الكاتب وطرائقه فى عرض قضايا الشعب وتصوير مشاكله ، وإنما لكى تعرف الوجه الحقيقى لنظام ما قبل الثورة ، وتتذكر الواقع المشوه الذى كان قائما ، والذى تقف أقلام اليوم أمام ذكرياته البغيضة عاجزة عن التقاط صورها بنفس القدر من السخونة والانفعال النفسى والوجدانى .

شعر الفضـول :

كان كل شيء فى يمن الأربعينات من هذا القرن فى بداية التكوين ، الأدب ، الفكر السياسى ، التطور الاجتماعى ، وكان الشعر ـ وهو كل الأدب فى تلك الفترة ـ بما يمثله من قوة وضعف يعكس واقع التكوين ، ويطمح إلى أن يغدو الانعكاس الحقيقى والصادق لروح الشعب الواقف أمام جدران السجن الكبير فى انتظار ساعة انهيار هذه الجدران والخروج إلى العصر بعد أن تخلف كثيرا ، وكثيرا ، وكثيرا جدا عن ركب الحضارة الإنسانية ، كان الشعب يومئذ كالضرير يتحسس طريقه فى الظلام على أصوات بعض الشعراء ، وكان الشعر هو الضوء المرتجف الذى يقاتل الليل حتى ينبثق من جوفه المظلم فجر الثورة المضىء . وإذا كان الأدب بمختلف أشكاله قد لعب أدوارا خالدة فى حياة كثير من الشعوب المقهورة المضطهدة فإنه قد ظهر فى اليمن ولسنوات طويلة وكأنه هو النشاط الإنسانى الذى يعطى لبقية الأشياء فى الحياة معناها وقيمتها ، وقد جعلته هذه الوظيفة قريبا من النفس اليمنية ، وأعطاه فى كثير من المواقف قوة السحر ، فهو الذى يتحدث عندما يصمت الناس ، وهو الذى يعبر عن أشواق الإنسان حينا وعن تعاسته وأحزانه أحيانا أخرى .

وبمقدار ما كان شعب اليمن مقهوراً ومغلوبا على أمره ، فقد منحه الله من المواهب الشعرية القادرة على تصوير أبعاد ذلك القهر وتحويله إلى اختلاجات إنفعال ومشاعر ثورة ، وكان لابد أن يكون أصحاب هذه المواهب من الشعراء الذين لا يبحثون عن مجد أو شهرة أو ثروة وإنما يطمحون إلى أن يكونوا الأصوات المعبرة عن الضيق الذى يعانى منه الوطن وعن الانسحاق الذى يعانى منه المواطن وقد أثبت عدد من هؤلاء الشعراء على اختلاف حظهم من الموهبة الشعرية أنهم قد وصلوا إلى درجة التعبير عن أمانى الشعب والتحدث عن الأمة .

وقد كان من حسن حظ شاعرنا الفضول أنه تتلمذ ـ فى بداية حياته ـ على أهم شاعرين يمنيين ، وهما الشاعر الشهيد زيد الموشكى والشاعر الشهيد محمد محمود الزبيرى . كان الأول يسخر بالظلم ويتحدى الطغيان ، وكان فى شعره بساطة التعبير وقوة الحجة ، وكان الآخر يقاسم الشعب بؤسه ويتجرع معه كأس العذاب ليفجر من

المعاناة شعرا رائقاً رائعاً. واستطيع القول أن الفضول الشاعر قد ظل ـ فى طريقة تناوله الشعرى ـ واقعا تحت تأثير هذين العملاقين إلى آخر قصيدة . ولا يعنى هذا أن الفضول لم يقرأ لغيرهما أو يتأثر بعشرات الشعراء من القدامى والمعاصرين ، شأن كل شاعر موهوب ، لكن التأثير الأول يترك انطباعه فى أعمال كل شاعر موهوب أيضا ، ويظل الشاعر من حيث يدرى أو لا يدرى محكوما بهذا الخيط الرفيع من التأثير ، وهو ما يطلق عليه بعض الدارسين صفة الانتماء إلى المدارس الشعرية ، أو الخروج من المعاطف ، وهذا يرفع من شأن الشاعر أو الكاتب المتأثر ولا يزريه أو ينتقص قدره .

٢

ألمحت فى السطور الأخيرة من الجزء السابق فى هذه الدراسة إلى أن الشاعر الفضول قد تأثر بالشاعرين العملاقين ـ الموشكى والزبيرى ـ وأن هذا التأثر قد عاش معه وترك آثاره على نتاجه **الشعرى** إلى أن لحق بهما بعد حياة **صاخبة** ونضال عاصف مرير . وإذا كانت الخلفية التاريخية السابقة قد أعطت ـ كما أرجو ـ صورة عن الواقع السياسى والاجتماعى ، وعن الذل والاستعباد خلاصة نظام المرحوم الإمام يحيى ، فان خلفية ثقافية موجزة قد تساعد على تبين حالة الفراغ والخواء التى خرج الفضول من صحرائها ، وكان قد سبقه إلى الخروج من حالة الخواء الشاعران العملاقان اللذان أعجب بهما وتأثر خطاهما الفتية نافرا من تأثير شعر المناسبات الغث ، وشعر النفاق الرخيص .

خلفية ثقافية :

كان العالم فى أربعينات هذا القرن يجئ وفقا لسرعات مختلفة ابتداء من سرعة القطار إلى سرعة السيارة ، ثم سرعة الطائرة ، أخيرا سرعة الصاروخ . وكان لكل شعب فى تطور أبعاد حياته سرعة محددة ، اختارها له حكامهُ والقائمون بأمره ، أو اختارها هو والحكام ، كل شعب بحسب ظروفه الإجتماعية والسياسية . أما شعب اليمن ـ والحديث هنا يقتصر على الجزء الشمالى منه ـ فقد ارتضى له حكامه والقائمون بأمره يومئذ سرعة السلحفاة ان كان للسلحفاة سرعة ما ، وقد حكمت تلك السرعة السير فى مختلف المجالات ، ومنها المجال الثقافى والأدبى . وينبغى أن

وعاد إلى الوطن بعد التجربة الرائدة ليواجه بسلاح الشعر عوامل الجمود ليس فى الأدب وحده وانما فى مختلف نواحى الحياة . وفى عدن بدأ الشعر يمارس أفكار التغيير وتنظيم حركة وطنية لم تلبث أن صنعت أول محاولة انقلابية فى تاريخ التحول الوطنى . وتأكدت للشعر بذلك الموقف خصوصية جعلت منه استجابة لما فى الواقع من دواع ودوافع ، كما جعلت منه وسيلة ـ مجرد وسيلة ـ وليس هدفا أو غاية ، وبذلك تحددت وظيفة الشعر والشاعر فى اليمن ، وهى الدفاع عن الحرية والدعوة إلى النضال ، وكان ظمأ الشاعر وفقا لهذا المفهوم للشعر ـ أشد ما يكون إلى توصيل شعوره إلى الآخرين وإلى حماية بل خلق الإحساس بالتغيير ، وعن طريق تأصيل هذا الشعور ـ الشعور بالمسئولية والدفاع عن الحرية ـ تأكدت أهمية الشاعر وترسخت قوة شاعريته ، انه لا يهتم بالخيال إلا بمقدار ما يصور مشاعر الجماهير المضطرمة ولا يهتم بالصورة الشعرية إلا بمقدار ما تنقل ما يختلج به صدره المضطرم بالثورة . لم يكن واقع الشاعر ولا ظروف الإنسان الذى يتحدث إليه يغريان بالبحث عن المدهش وغير المألوف من الصور والتراكيب الشعرية ، ولهذا وحده سلمت الحركة الشعرية فى اليمن منذ بداية التأسيس لها ـ إلى حد كبير ـ من الأحلام الرومانتيكية والأخيلة المريضة ، وظلت القصيدة قريبة من الواقع اليومى والنضالى لا تخدم الشعر ـ كما حدث فى بعض الأقطار وكما يحدث الآن ـ انما تخدم بالشعر وتخضع المعالجات الفنية والفكرية للتبشير بالقيم الجديدة .

وقد كان للبيئة الجديدة فى عدن أثرها فى فتح أفاق جديدة للقصيدة الوطنية فى اليمن ، وعدن فى الأربعينات إذا ما قورنت بصنعاء أو تعز أو أية مدينة يمنية فى شمال الوطن تعتبر مدينة منطلقة تشهد بعض التحولات الصغيرة فى الحياة الإجتماعية والاقتصادية ، لم تكن بالرغم من وقوعها تحت سيطرة الاحتلال تثير الحزن والرعب كصنعاء أو تثير الحسرة والقلق كتعز ، انها مدينة بحرية على مدخل الوطن تحاول بالرغم من الوجود الاستعمارى المشين أن تجد لها موقعا فى رحاب العصر وأن يكون لها صوتها الأدبى والفنى المستفيد من هذه التحولات التى تضطرب بها جنبات هذا العصر . لقد عرف الشاعر اليمنى فى الأربعينات موقعه ،

ندرك أن الأدب فى اليمن وإلى أواخر الخمسينات قد ظل قاصرا على الشعر لا شىء غير الشعر.

كان حكام اليمن الراحلون يحذرون الشعب من خطر السرعة، ويوهمونه بأنها تمضى بالآخرين نحو الفناء، وأن حكمة السلحفاة هى التى هدتها إلى الأناة والسير البطىء حتى لا تتعرض كالآخرين للفناء المحتوم، وبعد حين ستجد هذه السلحفاة نفسها وقد نجت من مخاطر الانهيار، وكانت الحرب العالمية الثانية دليلهم يومئذ على خطر السرعة وبرهانهم على بقاء السلحفاة فى منجاة من السرعة وبرهانهم على بقاء السلحفاة فى منجاة من الموت المحقق، وكانوا ـ أى الحكام ـ يشيعون فى كل الأوساط الغارقة فى الجهل والأمية أن العالم من حولهم يواجه حالة انتحار، وأن سرعته الجنونية سوف تقوده إلى الفناء وأنهم وحدهم الخالدون، لأنهم يقفون لايتحركون، أو يتحركون وهم واقفون. والحق أن الحرب الحالية وكل الحروب تشكل نوعا من الدمار للأرض والفناء للبشر، لكن الحق كذلك أن تلك الحرب لم تعطل قدرات الإبداع ولم تجعل كل البشرية تقف انتظارا للنهاية، فقد كان هناك من يعمل بسرعة فائقة ودون توقف على خلق حياة أسعد وأكمل للإنسان، وقد وضعت الحرب أوزارها وعادت عجلة التطور إلى الحركة، ودخل الناس الذين واجهوا الفناء مرحلة جديدة نحو سرعة أكثر وتطور أسرع.

أما الناس فى اليمن فقد واصلوا زحف السلحفاة إن لم يكونوا قد توقفوا عن السير تماما، وتوقف تطور السلحفاة الذى لم يبدأ فى أية ناحية من نواحى الحياة، ولم يكن الشعر وحده قادرا على الخروج من مناخ هذا الواقع الكئيب المتخلف، إلا أن يخترع لنفسه طائرة أو صاروخا يحلقان به بعيداً عن هذا المناخ إلا إذا ترك مدار الجمود، وكان الأستاذ الزبيرى ـ قبل أن يذهب إلى عدن مع رفيقيه الشاعرين الموشكى والشامى ـ قد حاول الخروج من منطقة الجمود، وعاش فترة فى القاهرة عاصمة مصر أكثر الأقطار العربية ـ آنذاك ـ تقدما، واستجابة لمطالب التطور السريع. وكانت الفترة التى قضاها الأستاذ الزبيرى فى القاهرة بمثابة الخروج من زمن جامد إلى زمن متحرك، وبمثابة الانتقال من عصر إلى عصر،

وتحددت ـ وهذا هوالأهم ـ وظيفة الابداع الشعرى ، وفى أن لا يكون بينه وبين صاحبه انفصام ولا بينهما وبين الوطن وقضاياه النضالية أدنى قدر من التناقض .

الشاعر الساخر :

تلك كانت خلفية ثقافية أوجزت فى سطور قليلة أبعاد مرحلة تعمق وتأصيل وتجذير الحركة الشعرية فى اليمن قبل ظهور الفضول شاعرا ، وربما مع بداية ظهور بواكره الأولى تلك البواكير التى قادته إلى التعرف بالشاعرين الكبيرين الزبيرى والموشكى ثم إلى الاندماج معهما على طريق الكفاح المرير بالكلمة ، وقد ألمحت فيما سبق إلى التأثير الذى تركه كل من الشاعرين الكبيرين على هذا الشاعر الشاب ، فما نوع هذا التأثير وكيف قد ظل واضحا فى كل ماكتبه من شعر؟ وللإجابة على السؤال لابد من الاعتراف أولا بأنه من الصعب على أى دارس أن يفصل بشكل حاسم المؤثرات التى تركت آثارها على الشاعر والكاتب ، وفى مثل حال شاعرنا الفضول فانه من السهل تلمس هذه المؤثرات فى مجالين اثنين أحدهما موضوعى والآخر فنى ، والمجال الموضوعى الذى نشير إليه هنا هو الاتجاه نحو السخرية فى مهاجمة الأوضاع التى كانت سائدة ، والبحث عن المفارقات المثيرة للضحك وهى فى نفس الوقت مثيرة للبكاء ، وهى نزعة أو سمة اتسم بها شعر الشهيد الموشكى الذى استقبل ذات يوم نبأ هدم الإمام يحى لبيته المتواضع بقوله هازئا ساخرا :

لله درك فــارســا مــغوارا   طعن الصخور ونازل الاحجارا

هذه السمة أخذها الفضول عن أستاذه الموشكى وتمثلها فيما كتبه بعد ذلك من شعر ساخر ومن نثر يجمع بين الضحك والبكاء . أما تأثير الزبيرى على الفضول الشاعر فقد تمثل فى العناية الدقيقة بأساليب التعبير الراقية فى قصائده غير الساخرة وغير الهازلة والتى حرص فيها على الانصهار بشكل واضح فى العملية الشعرية ، والاستجابة لدواعى الفن والايصال معا . وسوف نقصر هذا الجزء من البحث على الاتجاه الأول ، على القصائد الساخرة التى عبرت عن إحساس الفضول الشاعر

بتلك التناقضات الرهيبة فانطلق إلى تصويرها بشعر ساخر ليس فيه كثير من الشعر لكن فيه كثير من السخرية وكثير من المفارقات التى تفضح الواقع المؤلم ، الواقع المتسم بالعسف والاضطهاد .

من بين القصائد التى تقطر بالسخرية وتنضح بالألم وتفضح الطغيان وتشهر بعهده كأقوى ما يكون الفضح والتشهير ، قصيدة كتبها الفضول على لسان الإمام (**قد يكون الإمام يحى وقد يكون الإمام أحمد لا فارق**) والقصيدة تتحدث عن فرح الإمام وعن سعادته الغامرة بالنجاح الذى أحرزه « **جلالته** » فى سحق الشعب اليمنى وفى إشاعة أحط أنواع المساواة بين أبنائه وهى المساواة فى الفقر والخوف وحمل القيود ، والقصيدة تلخيص منظوم لخطبة من خطابات العرش الإمامية ، وتبرز منجزاته « العظيمة » فى سياق ساخر ظريف . ولو أن الشاعر لم يكتبها على لسان الإمام ووضع ما فيها من شكوى مريرة على لسانه أو على لسان أى مواطن من ضحايا الإمام ومن هؤلاء الذين أكلوا التراب وتدثروا بالسماء ، أقول لو أنه لم يتعمد هذا الأسلوب ويجعل الإمام هو المتحدث عن نفسه لما كان للقصيدة كل هذا التأثير العميق ، التأثير الذى لا يقتصر على مستوى بعينه من الناس المهتمين بالشعر ، وإنما يصل إلى كل أبناء الشعب ليفجر فى نفوسهم أشد ألوان النقمة على الطغيان ، وأقوى ردود أفعال الثورة على نظام العبودية والإذلال ، تقول أبيات القصيدة ، وقد حفلت ألفاظها ببعض المفردات العامية :

لحف التراب وبالحصير تأزرا ... شعب بحمد الله يمشى للورى
أدبّته بالفقر حتى يرعوى ... وحملته بالجوع كى لا يبطرا
ومشيت فوق ضلوعه مترفقا ... وملأت أكواخ العجائز عسكرا
وجلدت ظهر أبيه حتى لم يقم ... أحد ينطق أو يحرك مشفرا
فكعبتهم تعب الحياة فلم يعد ... أحد بتدبير الحياة مفكرا
وقطعت دابر كل لص أصغر ... ليصير جيبى فيه لصا أكبرا
ساويت بينهم بفقر ساحق ... يضحوا سواسية به فوق الثرى
هذى المساواة التى لم يستطع ... بطل يحققها لشعب فى الورى

قسما بظلمة كل سجن لن يرى　　أحد لهذا الشعب إلا ما أرى
إن القيود أو اللحود وقاية　　ممن يحاول فيه أن يتغيرا
شعبي العزيز : وقيت من حرية　　ووقتك جدران السجون تحررا
أرقد ونم واهنا ودم فى　　نوم أهل الكهف فى وحل الشقا مسمرا
ثم الصلاة على النبى وآله　　ما دق قيد فى السجون وصررا[1]

هذه هى خطبة العرش الإمامى كما نظمها الشاعر الفضول ، وللأمانة الأدبية فإن أكثر من شاعر يمنى يتنازعها ويدعيها إلا أن العارف بأسلوب الفضول وبطريقته الساخرة لا يستطيع إلا أن يحكم بها للفضول فهى أقرب إلى ما يكتبه من شعر ساخر ، فضلا عن كونها صورة من نفسه الثائرة الهازلة ، ولم يبرع شاعر من شعرائنا فى مجال السخرية الشاعرة ولا فى مجال التبسط فى انتقاد النظام الامامى كما فعل الفضول فى كثير من شعره وفى معظم كتاباته النثرية. وهذه (الخطبة) الشعرية هى بعد هذا وذاك تشبه قصائد الفضول المنظومة باللغة الفصحى والمطعمة بمفردات عامية وقد اتبع فى بعض هذه القصائد نهج تقليد القصائد العربية القديمة والجاهلية الطللية بصفة خاصة ، ربما لأن جزالة اللفظ وبساطة المعنى إلى حد الاسفاف يخلق المفارقة الظريفة الباعثة على الإضحاك كما فى هذه القصيدة اللامية التى عارض بها لامية عنترة الشهيرة ونقل أحداثها من ميادين المعارك والقتال إلى ميادين البطون والموائد ، وقد وصفها الفضول نفسه ـ ساخرا ـ بأنها سوف تقلب تاريخ الأدب وترد وجهه فى قفاه وتجعل رأسه فى الأرض ورجليه فى الهواء .

قال جاهل الفروسية :

حكم سيوفك فى رقاب العذل　　وإذا حللت بدار ذل فأرحل

وقال جاهل الفروسية :

حكم أكفك فى صحون المأكل　　وإذا حضرت على أُكال فانزل
وإذا الصديق دعاك يوم عزومة　　خوفا عليك من اصطراف الأربل

(١) مخطوطة نقلا عن أحد أعداد الفضول .

فأقبل عزومته وبادر مسرعا وأقدم إذا حق اللقا فى الأول
وإذا بليت بفارق كن غارقا بيديك .. لا تصبر ولا تتمهل
واختر لنفسك جفنة تشبع بها من لحم كبش بالخضار مشكل
والجوع لا ينحيك من افاته إلا صحون الزربيان وما يلى
فاكعم فديتك باليدين مسابقا ماكان حولك من كروش تمتلى
واختر جفانا بالفتوت مليئة وأملا يديك بسمنها المتغلغل
واحذر لمن يدنو إليك مشاركا وابرك على المفتوت لا تتململى
وازرد ـ وقيت الخنق ـ زردا متقنا اياك أن تخشى حريق الفلفل
واسمع نصيحة فارس لا يختبى يوم الوغى كالمهر تحت الكنبل
من نسل كعامين فى تاريخهم كبر الكروش من الطراز الأول
« أبناء جفنة » حول دست أبيهم سكوا على المعصيد أكبر مقتل
جعلوا «المدار» سلاحهم وتلاطموا بأكفهم ، وتداعسوا بالأرجل
ان أنكروا أهل البطون شجاعاتى فطويل باعى فى الفتوت يقرلى
والكعم والمغط السريع بهمتى عند اشتباك الكاعمين أنا العلى
وإذا فضولى دنا من جفنتى باعدته عنها بجد « الشنبلى » !
وإذا أرى كرشى تغلق وانفرا بعد الأكال رتقته بالسوتلى [1]

وهذه قصيدة أخرى ، يمكن تسميتها بالقصيدة « الانتخابية » ويبدو أن الفضول قد نظمها قبل حملة انتخابية للمجالس البلدية ، على لسان بعض الطامحين المحرومين من حقوق هذه الانتخابات ، والقصيدة الساخرة لا تخلو من نقد لاذع لذلك النوع الصورى و « التمثيلى » من الانتخابات ، والغريب أنه بالرغم من كونها انتخابات صورية فقد كانت قاصرة على بعض المواطنين اليمنيين وعلى بعض غير اليمنيين من ممثلى الجاليات الأجنبية ، ولأن الشاعر محروم من الانتخابات باعتباره يمانى « شمالى » فقد كتب قصيدته الساخرة على لسان يمانى (**عدنى**) ليفضح حالة الحرمان وألوان التمزيق والتفتيت ، وهذه مقدمة

---

(١) الفضول : العدد ١٣ ص ٢ .

القصيدة ، ثم القصيدة **« يعد شاعر الفضول من أكابر المهتمين بالانتخابات العدنية المقبلة ، وهو عدنى ولكنه ممن تنطبق عليهم شروط الحرمان من هذه الانتخابات وعدم دخولها ، وقد رأى فى منامه أن الانتخابات على أشدها فذهب ليعطى صوته ناسيا أنه لا يملك إلاّ نصف ديمه فى جبل العيدروس .. ونسى أنه فقير ابن فقير .. يقشط الفقر من جلده بالسكاكين ... وجائع جائع ، يفكر فى بيع نصيبه من الطريق ان كان له فيها نصيب .. ! وقد وقع له ما لم تذقه رقبة من الخباط وما لم يطعمه شق من الرباط ، ولما نفض مشافره من تراب المخباط .. قال صلوا على باهى الجهال :**

نخبوا مهجتى وقلبى لما ... كردونى من ساحة الانتخاب
ساح دمعى على الخدود كما لو ... ساح « سمن الجبال » بين الكباب
عش عزيزًا أو مت وأنت « خميدن » ... تحت دهف القفا ودكم الرقاب
حت متكومنن سأعطس جمرا ... أزبط القاع نظرة فى ذهابى
راكزا (نخرتى) أجعلل عينى ... شامخ الرأس عاصرا أشنابى
فإذا بى فى الانتخاب (فرنكن) ... طاحس طاح بنكه . فإذا بى
وإذا دكمة هنا وثلاث ... من هنا قد هفطن من جشابى
فوهبنا للريح رجلى نعام ... ما معى غير فردة من ركابى
وتحكولت بالحصير واضحت ... دجفاتى ترن فى كل باب
رب صحن قد طن فى صحن وجهى ... ضاحكا من تشقدف الأكواب
والذى حارت البرية فيه ... انتخاب « مكارد للخياب »
« برطعى » يا « رجول » ماشئت وأمشى ... كيفما تشتهين فوق التراب
واتركى الانتخاب حقا لمن تر ... قد فى كيسه لكوك الربابى
زعموا أننا خياب فلا نصلح ... للانتخاب .. آه ياخرابى [١]

ولا ريب أن هذا الذى حدث فى المنام لشاعر الفضول قد حدث لكل اليمنين

(١) الفضول : العدد ٦ ص ٢ .

الذين لا يملكون ملايين « الربابى » جمع « روبية » وهى العملة التى كانت متداولة فى الشطر الجنوبى قبل الاستقلال ، وفى هذه القصيدة كما فى سابقتها عدد كبير من المفردات العامية ، والعامية المحلية لمدينة عدن حيث اختلطت اللغة العربية والعامية العربية بلغات أخرى أهمها الهندية والإنجليزية والصومالية .. ويلاحظ أن الشاعر قد استخدم الموروث الشعرى وضَمَّن بعض أبيات شهيرة منه ، أو كما يقال فى التعبير النقدى الحديث اتكأ عليه ، فقد حور ـ على سبيل المثال ـ فى بيتى (**المتنبى عش عزيزا** » **والمعرى** « **والذى حارت البرية فيه** » وكان فى تضمينه للبيت الأخير أو اتكائه عليه موفقا إلى ابعد حدود التوفيق ، فالانتخابات التى حارت البرية فيها ليست سوى تمثيلية من النوع الهازل الرخيص يقصد من ورائها اثبات وجود أصحاب الملايين ومطاردة الفقراء ، فكأنما قيمة المواطن بما يملك لا بما يقدم من واجبات وما يستطيع القيام به من تضحيات ، وليس هذا بالغريب ، فالذى يسرق الشعوب ويزور الحقائق الكبرى لا يتردد عن تزوير الأشكال الديمقراطية ، وعن مواجهة الحق والعدل بكل الأساليب الخادعة القاهرة .

بقيت فى النماذج التى اخترتها لكى تمثل الشعر الساخر للفضول قصيدة ذات مغزى عميق ، القصيدة تحمل عنوانا ساخرا لا يقل عن سخرية الأبيات التى تتألف منها القصيدة ، العنوان هو « طيطو » والقصيدة ذات هذا العنوان الطريف تسجل حادث الاعتداء الذى تعرض له الفضول بعد شهور قليلة من صدور صحيفته « **الفضول** » وقد كان الاعتداء مدبرا ومن السهل اكتشاف مصدره وهوية مدبريه وإن كان الشاعر فى مقدمته النثرية التى روى فيها قصة الحادث قد حاول أن ينفى فكرة أن يكون الاعتداء سياسى وحاول أن يثبت أنه اعتداء من أجل السرقة فقد كان يحمل أثناء الاعتداء عليه شنطة « الفضول » وربما تكون على حد زعمه ـ قد أغرت بعض اللصوص . ومن مقدمة القصيدة وعنوان المقدمة « قصة المعركة فى الجبهة اليمنى » . نجتزئ الفقرة التالية الخاصة بوصف شنطة « الفضول » فقد كان يحمل فى يده « البورى » وشيئا آخر ثم .... « **والحاجة الثالثة التى تحملها هى الراهبة الدهماء والمصيبة الصما** « **شنطة الفضول** » **أو** « **خُرْج الفضول** » على الأصح ، والظاهر أنها

جالبة المصيبة .. فقد يكون قليل الخير حسبها مشحونة « **ياخضرى** » « **أبو نخلة** » ولو علم ما كان فيها لغطى وجهه من الفضيحة ؟ ! لأن المشنوط بها لم يكن إلا حذاءً **بالياً رقعناه ، وإلا سراويل ابتعناه للأطفال** » .. **هل يرتضى أحد بهذا التفسير أو الافتراض الذى** ذهب إليه الفضول سببا للعدوان الآثم ؟ إذا كان قد اقتنع نفسه بذلك واقتنع معه اخرون فاننى لا أقبل شيئا من ذلك التفسير فالاعتداء لابد أن يكون مرتبطا بالفضول الصحيفة وبما تنشره من المضحكات المبكيات ، وكم كان فى بلادنا يومئذ من المضحك الذى يشبه البكاء :

أين «البئيس» فراسى اليوم مضبوط ... مذحلّ خمّاشه بالشاش مربوط
يا غارة الله ما للآثمين بنا ... من غاية ؟ ما يرى فينا الزباليط
ياحبطة الاثم كم أدميت من كبد ... حتى الجياع بكونا .. والعراميط
أسفت شعب بنى شمسان من اسفى ... فكلهم خده فى الكف محووط
يبكى «الفضول» ويبكى جرح جبهته ... وكل خد لهم بالدم منقوط
وكلها خبطة صغرى بدت عجبا ... فى حاجب العين .. زانتها البلانيط
عمائم وطرابيش تطوف بنا ... والكوفيات أتتنا .. والبرانيط
وزارنا كل طفران وذى سعة ... وشرفونا التعابا والمباسيط
وآنستنا طوابير العجائز من ... أدنى القطيع إلى أقصى الخسا «فيط»
والحول والعور والعميان تندبنا ... وكلهم قلبه بالقهر مشطوط
يبكى الزميل الذى لم يكف جبهته ... دكم الجدار .. فوفته الخبابيط (١)

هذه بعض النماذج لشعر الفضول الساخر وهناك نماذج عديدة تصور بعمق ومرارة أكبر أبعاد المأساة التى نزلت بهذا الوطن وسحقت أبناءه والشعر الساخر الذى تركه الفضول يثير حشدا هائلا من الأفكار والملاحظات لا تتسع لها سوى صدر الدراسات المعمقة ، وهى دراسات ينتظر أن يقوم بها جيل جديد من الدارسين الشبان الأكفّاء .

---

(١) الفضول : العدد ، ٦ ص ٢ .

من أطرف أخبار الفضول :

نشرت الفضول فى عددها السادس والعشرين ١٩٤٩ الخبر الطريف التالى : «عرضت الجامعة العربية على اليمن أن تأخذ حصتها من لاجئى فلسطين فقبلت الحكومة هذا العرض غير أن الحَسَن ترجا فى جوابه عزام باشا بقوله : « وأرجو أن يكونوا جميعا مستعدين للموت بسرعة تسهيلا لمهمتنا فى إيوائهم .. وأهلا وسهلا البلاد بلادهم والمقبرة بيتهم ، وإن ما كفاش عزرائيل أموتهم بنفسى » ! !

...

٣

كتب الشاعر الفضول على مدى ثلث قرن أو يزيد عددا غير قليل من القصائد التى اخترت لها هذا الوصف المثبت فى عنوان هذا الجزء من الدراسة ، والذى يأتى فى مقابل الوصف الخاص فى القصائد الساخرة . تلك التى عرضت لها فى جزء سابق ، وقد أشرت فى ذلك الجزء إشارات شبه عابرة إلى السبب الذى أوجد ذلك الشعر الساخر وإلى الواقع اللامعقول فى الحياة اليمنية فى ظل الهمجية والتقاليد المشوهة ، ذلك الواقع الذى كان لابد من فضحه والتحريض عليه بكل الأساليب ، ومنها الأسلوب الساخر الضاحك الذى قد يبدو أحيانا أنه يتعالى على المأساة فى حين أنه يتغلغل إلى عمق أعماقها فيجعل الدمع يضحك والضحك يبكى .

وإذا كانت القصيدة الساخرة غير قادرة على إعطاء الملامح الحقيقية لصوت الشاعر وأبعاد تجربته الفنية لما يتميز به من بساطة فى التناول ومن تعمد فى اختيار المفردات العامية ذات الإيحاء الشعبى والمعانى المباشرة سريعة الإيصال :

أقول إذا كان ذلك هو شأن القصيدة الساخرة فإن الأمر يختلف تماما مع القصيدة الجادة ، القصيدة التى ينبغى لكى تكون جيدة أن تكون لغتها فصيحة ومعانيها بديعة مبتكرة ، وأن يكون الشاعر عارفا بأساليب الفن الشعرى الرفيع محيطا بشروط الجودة الفنية ، حتى يكون نتاجه الشعرى عملا أو أعمالا شعرية تسودها الأصول الفنية التى تسود كل الأعمال الشعرية فى عصره .. ومطبوعة بطابع الحياة الخلاقة المبدعة .

وشعر الفضول الجاد ـ بمختلف قضاياه العامة والخاصة ـ صورة من شعر عصره ومرآة لثقافته الشعرية التى توقفت عند مستوى معين من التجديد والإبداع لم يتجاوزه هو وأفراد جيله الكثيرون ، وفيهم شعراء ملء سمع اليمن وبصرها ، وعلى ضوء قصائدهم التى تخلقت فى بؤرة الهم الأكبر ولدت القصائد الأكثر اقترابا من الجديد والأكثر تحفزا نحو التعبير المنعتق من الأشكاليات الجمالية للشعر العربى المحافظ على القالب الموروث .

كان الفضول فى بداية ولادته الشعرية واحدا من الشبان الذين واكبوا حركة التجديد فى القصيدة الحديثة فى اليمن ، وقد شهدت بدايات التفتح الحقيقى لهذه القصيدة على يد الشعراء المخضرمين أمثال الزبيرى . والموشكى والحضرانى والشامى وغانم ، ورافقه فى سنوات الميلاد الشعراء محمد سعيد جراده ، على محمد لقمان ، عبد الله البردونى ، وعلى أيدى أولئك وهؤلاء شهدت القصيدة فى اليمن تحولا واضحا ، وكانوا بداية مرحلة ريادية انتقلت بالقصيدة على مراحل متفرقة ومتتابعة من الكلاسيكية التقليدية إلى الكلاسيكية الجديدة ، إلى الرومانسية . وأخذ عدد من هؤلاء الشعراء يتأثرون بالنتاج الشعرى العربى ويقلدون بعض نماذجه الأصيلة ، وفى وقت قصير تلاشت الفجوة الواسعة وأصبح الشاعر فى اليمن كزميله فى مصر أو الشام أو العراق يعبر عن روح العصر ، ويحاول أن يمتد ببصره إلى المستقبل .

وبالنسبة لشاعرنا الفضول فقد اقتصر تجديده وتجديد جيله على ما أسهموا به من تجديد لغة القصيدة وفى تطوير مضامينها . وقصيدتهم بالرغم من معوقات العزلة والانغلاق تكاد تكون نقلة تاريخية إذا ما قورنت بالفترة الزمنية التى تم تكوينها فيها وبالكيفية النوعية التى ظهرت بها القصيدة الأربعينية والخمسينية ، وتجدر الإشارة هنا إلى تأثير الزبيرى الأستاذ الأول للشاعر الفضول فى اقتحام عالم التجديد المحكوم بشروط الواقع وظروفه ، كما يمكن لى هنا أن أكرر ما كنت قد أشرت إليه فى الجزء الأول من هذه الدراسة بشأن التأثير ، فالفضول لم يقتصر تأثره على الزبيرى ولا على الموشكى ولا عليهما معا دون غيرهما من الشعراء فقد قرأ وتأثر بعشرات الشعراء المشاهير فى القديم والحديث لكن اقترابه من الزبيرى بخاصة وإشراف الأخير على محاولاته

المبكرة قد ربطه بتجربته الشعرية أكثر من أى شاعر آخر ، ولأن الزبيرى لم يجنح نحو الرومانسية إلا قليلا وفى قصائد معدودة فان تلميذه الفضول قد ظل وفيا لنفس النهج فلم تستهوه المغامرات الشكلية ولم يحاول مجاراة بعض زملائه أمثال أحمد الشامى ولطفى أمان اللذين استهواهما ما جدَّ على القصيدة العربية من تغيير فى البنية البيتية الموحدة التفاعيل والبحور ، وان كان قد جاراهما فى كتابة القصيدة الخارجة على وحدة البحر ووحدة القافية .

وهنا ونحن فى نطاق محاولة تقويم شاعرية الفضول لابد من الإشارة إلى فترة التوقف غير القصيرة التى انصرف فيها عن كتابة الشعر وربما الكتابة بمختلف أنواعها ، وقد أدركته هذه الفترة فى السنوات التى سبقت ثورة سبتمبر وفى السنوات التى تبعتها ، وكان يومئذ قد انصرف عن الشعر والأدب إلى بعض شئون الحياة ربما حدث ذلك يأسا من جدوى الشعر وتعبيرا عن عبث الكلمة بعد محاولات التغيير الفاشلة ، وبخاصة تلك التى سبقت الثورة وذهبت بعشرات الرؤوس . وقد واصل الفضول انصرافه عن الشعر بعد الثورة ولم يعد إليه سوى فى السبعينات عن طريق الأغنية التى أعادته إلى الشعر وجعلته يعود إلى تفجير غضبه الشعرى كما فعل فى قصيدته الأخيرة التى تصاعدت معها آخر أنفاسه المحترقة فى هول الجحيم الفلسطينى اللبنانى :

هذه كل المرايا فاكسروها ... فلكم تبدون فيها بشعينا
وأقرأوا هذا بمقت والصقوا ... كل حرف معكم كان أمينا
والعنوه.. والعنوا الصدق به ... طالما للصدق كنتم لاعنينا
وقطعتم داخل الاظلام عمرا ... وعشتم خارج الضوء سنينا
وسقطتم.. فادخلوا أجحاركم ... وانشدوا فيها نشيد الضائعينا

وسوف يلاحظ الشعراء ومدمنى قراءة الشعر أن البيت الأول من هذا المقطع والبيت قبل الأخير منه أيضا يعانيان من تعثر فى الوزن ، ذلك لأن المنية لم تمهل الشاعر حتى يتمكن من إعادة النظر فى القصيدة واصلاح عيوبها الوزنية ، ويبدو أن

التعثر الوزنى لا يلازم بعض أبيات هذه القصيدة وحسب ، وأنها لم تكن القصيدة الوحيدة سيئة الحظ التى حال الموت بينها وبين الاصلاح والمراجعة فهناك عدد غير قليل من القصائد التى تركها دون مراجعة أو تنقيح ، وكان قد حدثنى قبل وفاته بأسابيع قليلة أنه سوف يعكف على جمع بعض قصائده الصالحة للنشر فى ديوان أول ثم يتفرغ بعد ذلك لإصلاح وإعداد القصائد الأخر لديوان ثان ، لكن الموت كان أسرع إليه ، وكان لابد أن تبقى بعض قصائده فى مسوداتها الأولى.

صـوت الوفـاء

توقفت طويلا أمام قصيدة من قصائده الجادة الجيدة الأسلوب المعبرة عن وجدان صادق وعميق نحو صديق أو زميل وربما يكون قد وقف إلى جواره يوما ما فأنطقه بلون من الشعر لا هو مديح ولا تعبير عن الامتنان والعرفان بالجميل ، أنه شيء آخر من حديث الوجدان وصلاة القلب فى زمن موحش أجدب من الوفاء ، وامتلا بناكرى الجميل ، وأكرر القول مرة أخرى أن هذه القصيدة قد شدت انتباهى وأوقفتنى أمامها طويلا ، هى قد يقال نموذج من شعر الإخوانيات الذى كان الأدب العربى والشعر العربى يزخر به طوال سنوات الإزدهار وعبر عصور الصحة النفسية والأخلاقية ، أقول إنها لكذلك لكنها تعبر فى الوقت ذاته عن الفرح العظيم بالعثور على صديق حقيقى فى زمن الزيف والابتسامات المعلقة على الشفاه ككل شيء صناعى ورخيص فى القرن العشرين ، وهذه هى القصيدة الخالية من أى عنوان ، لأنها كلها عنوان عن العثور على انسان :

يـا من ركـنـت إلى اخـائـه ووجـدت أمنى فى وفـائـه
فـإذا أتت ظـلـم على دارى تهـل فى سمائـه
نجما يضىء مسـالـكى فـتسير خطوى فى ضـيائـه
وإذا ظـمـئت أتى كـغـيث المزن يـنصحنى بمائـه
وأسـال فوق خـمـيـلتى سيلا تـنـظف من غـنـائـه
وتجيـئنى مـنـه الصـنيعة فى ثـيـاب من حـيـائـه

يعطى الأخاء حقوقه موفورة قبل اقتضائه
كم سرت فى معروفه أجتر ذيلا من ردائه
أنا بلبل لاشىء الا أنت يسمع فى غنائه
فى صبحه يشدوك أغنية . ولحنا فى مسائه
وإذا ترنم أو شدا بسواك أخطأ فى أدائه
يا قلبك المخضل كم أعطى لقلبى من عطائه
وحنى عليه كأنه فرخ تولد فى غشائه
كم باخل حسب النزو ع إلى المرؤة من بلائه
فى الخير أمى ، ويلثغ نطقة فى لفظ رائه
ويراه ورطته التى فى بعضها كل انتهائه
كالليل ممقوت الدجى يأتى الصباح من اختفائه
يا من يعاجز نبله قلبى فيعجز عن جزائه
لم يلق ما يعطيك غير محبتى وسوى ثنائه
أنت الاعز لديه والأولى به من أقربائه
يأتى القلوب مباهيا بك رافلا فى كبريائه
يا ضخم ، ما ساواك فى قلبى الكبير سوى إبائه(١)

يغفر لى القارئ بعد أن يصل إلى البيت الأخير فى القصيدة أى مبالغة للاحتفاء بهذه القصيدة النادرة فى شعرنا الحديث ، والتى أراها فى بنائها المتين وفى صورها الشعريه المبتكرة نموذجا بديعا للقصيدة اليمنية الخارجة عن المسار التقليدى لا بما تقدمه من نفحات شعرية جديدة التعبير والأخيلة وإنما بما تشيعه من صدق المشاعر ودفء الوجدان ، وبما تسنه أو تشرعه ـ فى زمن الجحود ـ من ضرورة العرفان بالجميل حتى لا يموت الجميل فى أفعال الناس وفى قلوبهم .

وهذه قصيدة أخرى ، صوت آخر ، لكنه من نفس النبع ، النبع العاطفى

---

(١) من القصائد المخطوطة .

الرقراق ، وهو هذه المرّة يترقوق دموعا ، ويتشكل وجعا حزينا ويتكسر على طريق الموت بعد أن اختطف الأخير واحدا من هؤلاء الأحباب الذى تكون الحياة بوجودهم معنا أكثر إشراقا وجمالا ، وبعد رحيلهم الفاجع تغدو سجنا كئيبا وتفقد كل بريق لها فى العيون . ومن هو ذلك الإنسان السعيد الذى لم يجرب البكاء على الأحباب ولم يجرب رؤية الشفق فى الظهيرة ، رؤية الليل فى منتصف النهار ؟؟.

القصيدة لم تحدد اسما للراحل الذى بكت فراقه الطويل ، وماذا تجدى الأسماء يكفى أن جزءا من قلب الشاعر قد تفتت وأن جرحا آخر قد أضيف إلى بقية الجراح الساخنة ، وأن الدنيا قد صارت أقل جمالا مما كانت عليه :

راح من رونق بالأخلاق عمره
ومضى من أسكن الإيمان صدره
ليتنى أمتلك الأفق وفجره
كنت لقيت بروح الفجر ذكره
ليت أنى أملك الغيم وقطره
كنت ظللت بكل الغيم قبره

يا لقلبى لم يزل من فقده ساخن الجرح ولم يبرح وجيعا
لم وحدى أحمد الحزن به وعيونى وحدها تذرى الدموعا
ولقد جمعنا فى صدره قلبه الصادق فلنبك جميعا

هذه الأحداث لم تترك بابا من حبورا
فوقها تسحب أكفانا وموتا وقبورا
لكأنى ساحر سوف يلاقى الناس بعثا ونشورا

كلما أحسن فى الأيام أمعنت الأيام سوءاً فى عقابى
وصحابى كثرة لكنها نزعت من بينهم أغلى صحابى
وجعى يمضغ أعصابى ويغرى بأحاسيس عظمى وإهابى
بعد صحبى لم يعد عيش سوى سفر فى الشوك أو لعق شراب

لم أزل أحتمل الأحزان ما جار وما خف
وجعى فى فقد أصحابي رى نفسى وأتلف
فلماذا أنا باق؟ ولماذا أتخلف؟
ورحيلي بعدهم أحنى على حسى وأرأف
يبست عينى ومجرى الدمع فى عينى قد جف
لم يعد فى مقلتى شىء على الباقين يذرف

أنا فيه لا أعزى أهله أنا أدعوهم ليأتوا لعزائى
ليعزونى بفقدانى فتى نبله قد كان سترى وكسائى
قبله ما هدنى حزن ولا تعبت عيناى من طول بكائى
ولئن أطفأت الدمع له ضوء عينى فذا أدنى وفائى
فلقد أعطى ودادا لم يدع بعده فضلا لمعط وعطاء(١)

هل أدرك القارئ الآن أبعاد العلاقة بين القصيدتين وكونهما صدرا عن نبع واحد ، نبع يتحدر من القلب النابض بمختلف الأحاسيس والمشاعر النبيلة ، وقد كان الحزن وسوف يبقى أنبل المشاعر الإنسانية وأصدقها تعبيرا عن ضمير الإنسان ونقاء روحه ، وفى شعرنا المعاصر الكثير من قصائد الأحزان ، ولعل الناقد الأدبى الذى لا يعرف أوضاع بلادنا وما حفل به تاريخها الحديث من فواجع خاصة وعامة ، لعله قد يدهش لكثرة القصائد التى تتسربل بأردية كثيفة من الأحزان ، وقد يكتشف فيها نزوعا تاريخيا إلى البكاء أو ميلا فطريا نحو الألم ، وكأن الشاعر لا يخرج من قصيدة حزينة إلا لكى يدخل فى قصيدة حزينة أخرى ، وحقيقه الأمر أن هذه القصائد تصدر عن مواقف متعينة وعن تجارب لا زيف فيها فالشاعر فى بلادنا محكوم بالحزن وهو ينتقل من حزن إلى آخر ومن مأساة إلى مأساة ، واضح ذلك وبشكل بالغ العمق من لون أشعاره ومما تعكسه تلك الأشعار من صورالقلق والشجن .

---

(١) من القصائد المخطوطة .

صـوت القلـب

كل شعر لا ينبع من القلب ولا يكون مختلطا بصوت الوجدان ـ مهما كان غرضه ـ لا يصل إلى القلب ولا يتجاوز التلاعب الصوتى بالألفاظ ، لكنه بالرغم من ذلك التحديد المطلق فان ما يسمى بشعر القلب عادة هو شعر التعبير عن عاطفة الحب بمعناه الخاص ، شعر الإفضاء عن الإحساسات والانفعالات التى يستمدها الشاعر من معاناته العاطفية وتتلبور فى صيغة فنيه تعكس صدق التجربة مع الحب والحبيب ، وهذا نموذج واحد من شعر الحب عند الفضول ، وهو نموذج منتزع عشوائيا من بين عدد غير قليل من النماذج العاطفية ، وهى غير تلك النصوص الغنائية التى تتردد على حناجر الغنائيين الموهوبين وفى مقدمتهم الفنان الكبير أيوب طارش . وهذا هو نص القصيدة العاطفيه التى يروى فيها الشاعر حكاية حب كبير لم يكتب له البقاء ولم يعمر فى واقع الحياة طويلا :

أين أشواقـنـا وأين هوانـا ... كيف سرنا إلى الدجى من ضحانا
أين ماكان فرحة تملا الحس ... كـأنـا بهـا نـزلـنـا الجنـانـا
ووعـائين فـيـه أخضر اليـا ... قوت كـنـا وضوْه محتوانـا
بـدءنـا كـان حـبـنـا فلماذا ... قـد جـعـلـنا فراقه منتهانا
والهوى كـان أمـنـنـا ... بهوانـا حتى فـقـدنـا الأمـانـا
وقسـمـنـا الدموع إرثًا حزينا ... بين أشـواقـنـا وبين مـنـانـا
سوف نبقى بعد الهوى يا حبيبى ... لا نلاقى على ظلال مـكـانـا

وسنمشى مع الندامة والأحزان ... فى ذمـة الضـيـاع كلانـا
لا نلاقى لـنـا حياة ولا الحب ... يلاقى حـيـاتـه فى سوانـا
وسـنـمضى فى غـربة وسيبقى ... حـبـنـا كـالضرير حتى يـرانـا
يـا حـبيبا به هزئت بحـزنى ... وتمزقت بـعـده أحـزانـا
ثروة كنت فى يد الحب للقلب ... كـأنى بها مـلـكت الـزمـانـا
وثـرا من الـنـفـائس نـفسى ... تحتويها جواهـرا وجمانـا
لم يعد منك لى ولا لك منى ... غير أطلالـنـا وغير بلانـا

بجلاء أبعاد موهبة الفضول وتضعه بين أقرانه من الرعيل الأول لشعراء التجديد فى اليمن . ذلك الرعيل الذى آلى على نفسه فى الأربعينات من هذا القرن أن يخرج على أساليب الحياة الجامدة وعلى نظام الحكم وعلى أساليب الشعر التقليدى المنظوم . وقد استطاعت هذه القصيدة أن تصور لنا كأصدق مايكون التصوير حكاية الحب الذى كان قويا ورائعا وكانت معه الحياة جميلة ومشرقة ، ثم ضاع فجأة وضاع معه الحبيبان ، ليس ذلك وحسب بل لقد محاهما الحب من أوجه العظيم وسقطا من السماء وقد كان مثواهما فى فجرها المضىء ، وفى القصيدة تتناثر مجموعة من التعابير الشعرية المبتكرة والصور البديعة التكوين كتلك التى تتحدث عن تقسيم الدموع ، وعن الإرث الحزين وندى الدمع ، والحب المغدور ، وذبح الأشواق ، وبكاء الظلال ، وعيون الضياء . قد يكون الشعر فى الآونة الأخيرة خطوات أهم فى تكوين الصور الشعرية وفى خلق مستويات جديدة للاستعارة ، لكن ظهور هذا المستوى الإبداعى فى شعر الفضول وفى بداية ظروف التمرد والخروج على المواصفات التقليدية فى الفن الشعرى يشكل إحدى المعالم البارزة على طريق الحركة المستمرة فى تجديد أنماط القصيدة العربية . وتلك باختصار هى الخطوط العامة أو الملامح الرئيسية للقصيدة الفضولية كما كشفت عنها القراءة الأولى ، ولنا معها وقفات أخرى فى وقت قريب إن شاء الله .

أوندى أدمع نحاول أن نطفىء   أشواقـــنـــا بها وجوانـــا
لن تعيد الدموع حبا غدرناه   وقـد أجـهزت عـليه يدانا
نثرتنا الرياح لليل لا نعرف   فيهـــا بلى فج رمـــانـــا
كبريـاء منى ومـنك أطعناها   فـجئنا ضلالنا من هدانا
خدعتنا الظنون أنا بها أكبر   من حـبـنـا وأكرم شـأنـا
ورأينا على الحقيقة أن الحب   من لوحـه الـعـظيم محانـا
وسقطنا من السماء وقد كان   على وجـه فـجـرهـا مثـوانـا
وسرحـنـا فى ردة واكـتسينا   بـدل الضوء مقتها وأكتسانا
وذبحنـا أشواقـنـا ومشـيـنـا   فوق أشلائـنـا وفوق دمـانـا
ورزحنا تحت الخطيئة فى الأرض   كـأنـا بها صـلـبـنا ربـانـا
لا نرى مأمنا ولو أن للغفران   أرضـا لـكـان حمانا
كم رهنا للحب أن يقهر الحب   ولـكـنـنـا خسرنـا الرهـانـا
وتـركـنـا الظلال تبكى علينا   بعد أن كان فيئها ملتقاها
وهجرنا الضحى وحيدا وقد كان   حـبـيـبـا لـنـا وكـان أخانا
والـبقاع التى التقـينا عليها   لم يعد عطرنا بها حيث كانا
فـإذا زار وجـهـهـا عـندليب   أسبـل الـدمـوع فوقها وبكانا
ورأى البوم والزواحف والأشباح   تــأوى بحيث كــان هوانـــا
مـزقت طيـلسانها الرياح وقد   كـان عـليها ريحانها طيـلسانا
وغصون الخزام جفت وما عاد   عـليهن يـا حـبيبي نـدانا
والـفـراشات لم يعدن يلاقين   بها سوسـنـا ولا اقـحـوانـا
وعيون الضياء تسرح فى كل   اتجاه لـعـلـهـا أن تـرانـا
وإذا مـا سمعن خـطـوا تـنصتن   عسى أن تكون تلك خطانا [1]

ان رنة الصدق فى هذه القصيدة كما هى فى سابقتها ـ وهو صدق فنى ـ تظهر

(١) من القصائد المخطوطة .

بجلاء أبعاد موهبة الفضول وتضعه بين أقرانه من الرعيل الأول لشعراء التجديد فى اليمن . ذلك الرعيل الذى آلى على نفسه فى الأربعينات من هذا القرن أن يخرج على أساليب الحياة الجامدة وعلى نظام الحكم وعلى أساليب الشعر التقليدى المنظوم. وقد استطاعت هذه القصيدة أن تصور لنا كأصدق مايكون التصوير حكاية الحب الذى كان قويا ورائعا وكانت معه الحياة جميلة ومشرقة ، ثم ضاع فجأة وضاع معه الحبيبان ، ليس ذلك وحسب بل لقد محاهما الحب من أوجه العظيم وسقطا من السماء وقد كان مثواهما فى فجرها المضىء ، وفى القصيدة تتناثر مجموعة من التعابير الشعرية المبتكرة والصور البديعة التكوين كتلك التى تتحدث عن تقسيم الدموع ، وعن الإرث الحزين وندى الدمع ، والحب المغدور ، وذبح الأشواق ، وبكاء الظلال ، وعيون الضياء . قد يكون الشعر فى الآونة الأخيرة خطوات أهم فى تكوين الصور الشعرية وفى خلق مستويات جديدة للاستعارة ، لكن ظهور هذا المستوى الإبداعى فى شعر الفضول وفى بداية ظروف التمرد والخروج على المواصفات التقليدية فى الفن الشعرى يشكل إحدى المعالم البارزة على طريق الحركة المستمرة فى تجديد أنماط القصيدة العربية . وتلك باختصار هى الخطوط العامة أو الملامح الرئيسية للقصيدة الفضولية كما كشفت عنها القراءة الأولى ، ولنا معها وقفات أخرى فى وقت قريب إن شاء الله .

من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلى

دراسات ومتابعات نقدية

« إن لفظى الخفاء والتجلى فى عنوان هذا الكتاب لا يجسدان فى هذا السياق سوى النظرة المباشرة إلى حقيقة ماعانى منه الأدب فى اليمن فى مراحل سابقة من اختفاء ثم ما بدأ يشهده من خطوات تقود الأنواع الأدبية بمختلف أشكالها نحو أفق أكثر اتساعاً ونزوعا إلى المعاصرة والتحديث .

لقد حاولت من خلال العنوان وحده أن أختزل تاريخ اليمن الشعرى ابتداء من آخر سنوات الاجترار التى مهدت لسنوات الخفاء الأدبى وانتقالا إلى سنوات ـ الاحياء والتجلى . ويلاحظ أن السنوات الأخيرة من عصور الانحطاط الأدبى والفكرى فى اليمن قد شهدت عددا من المحاولات الأدبية الفكرية التى سعت فى قلب ذلك التقاطع الحاد إلى مواجهة السقوط النهائى فى قبضة الجمود والتوقف . لكن جهد تلك المحاولات الجليلة ذهبت عبثا ولم تفلح فى انقاذ اليمن من الدخول فى مرحلة الخفاء والجفاف التى استمرت من أواخر النصف الأول من القرن الثانى عشر إلى أواخر النصف الأول من القرن العشرين وقد أثبت التخلف طوال هذين القرنين أنه قوة مدمرة لاسبيل إلى إيقافها أو قهر عواملها المؤدية إلى تحجير الفكر وقطع دابر الفنون والآداب . » .

دار الكلمة
صنعاء ـ شارع القصر الجمهورى
ص . ب ٢٣٠٣ ـ برقيا المقحفى